تاريخ ثوكيديدس

الاستاذ سيد محمد سيد

ثوكيديدس .. وأعنى به ذلك المؤرخ المعروف الذى أرخ لنا الحروب البلوبونيزية التى نشبت بين اسبرطة وأحلافها من جهة وبين الإمبراطورية الأثينية من جهة أخرى وذلك فى النصف الثانى من القرن الخامس قبل ميلاد المسيح

والتأريخ فى حد ذاته فن يحتاج إلى عدة عناصر يجب أن تتوافر فى المؤرخ ، منها مثلا معرفة الحقائق والاستعداد لتسجيلها بأمانة وإخلاص ، وكذلك الاستعانة بالخيال — إلى حد ما — لتصوير الشخصيات وإبراز النتائج

ونحن نعلم تماماً أن المعرفة ليست من السهولة بمكان ، كما أنه يصعب التوفيق بين الدراسة العميقة والخيال الخصب ، ومع ذلك فقد تجمعت لثوكيديدس من هـذه العناصر ما ترفعه إلى مصاف أعظم المؤرخين ، وربما كان هذا رأى « ماكولى » المؤرخ المعروف الذى كتب فى مذكراته : لقد انتهيت اليوم من قراءة ثوكيديدس وتاريخه بكل شغف وإعجاب ، وأستطيع أن أقرر أنه أعظم مؤرخ ظهر إلى اليوم

ولا أرى بأساً من أن أشير إلى سيرة هـذا المؤرخ إشارة وجيزة تمهيداً للكلام عن تاريخه

ولد ما بين سنتى ٤٧ ، ٤٦ قبل الميلاد فى أثينا ، ومن الحقائق التى عرفت عنه أنه قاد أسطولا بحريا أثينيا ضـد الاسبرطيين خلال حروب البلوبونيز ، وقد قص علينا فى (كتابه الرابع) فشله فى هـذه المهمة بإيجاز وخشى أن يعود إلى وطنه يجرر أذيال الخيبة والخسران ، فولى وجهه شطر بعض الولايات المعادية لأثينا فى البلوبونيز . ثم بدأ يكتب تاريخه

وقد استغرقت الحوادث التى دونها الربع الأخير من القرن الخامس ق . م وعنى بذكر حرب البلوبونيز بصفة خاصة فلم يشر فى كتاباته إلى الإمبراطوريات القائمـة وقتئذ مثل إمبراطورية الفرس ومصر إلا بقـدر ما تؤثر فى مجرى الأمور فى ولايات الإغريق

وعلى الرغم من أنه فى هـذه الفترة من التاريخ القديم عاش فطاحل الأدب والفلسفة والفن أمثال هيرودوت وايسوخلوس وفيدياس واوبر بيرس وسقراط فإن ثوكيديدس لم يذكر فى كتاباته اسم أحد من هؤلاء كما لم يشر إلى أعمالهم بشئ بل إن كل ما وجه إليه عنايته هى تأريخ الحروب البلوبونيزية مما جعل البعض يطلق عليه أنه مؤرخ هذه الحروب

وإن الباحث المدقق فى تاريخ هذا الرجل يبدو له لأول وهلة إن كتاباته ليست سوى صورة باهتة جرت بها يد شخص ليست لديه ملكة قياسية ، هذا فى الوقت الذى اعتبره فيه « ماكولى » أعظم المؤرخين !

ويرى السير رتشرد لفنجستون فى مقدمته عن تاريخ ثوكيديدس الذى نقله عن اليونانية أنه ليس فى الحياة الأدبية لأية أمة ثلاثة تشابهت او تساوت عبقريتهم مثل أفلاطون وأرسطو وثوكيديدس فى أثينا ... ويقول أيضاً ... لقد كانت لدى ثوكيديدس هـذه الروح العلمية التى نجدها عند المؤرخين فى أيامنا

وقد شرح لنا ثوكيديدس على صفحات كتبه النظريات عن كيفية التحقق من الروايات التاريخية ، وعلى ذلك نستطيع أن نقول — ولا حرج — إنه واضع الأساس لهـذا العلم الناشئ ولنستعرض آراءه إذ يقول « لكى تبحث عن الحقيقة يجب أن لا تعبأ بأول ما يصل إلى متناول يدك ، وعلى المؤرخ أن لايتنكب الوصول إلى الحقيقة عن طريق أخيلة الشعراء وأساطير الأولين الذين يحاولون اجتذاب القلوب إلى أحاديثهم الشوقة عن طريق التهويل والمبالغة دون العناية بذكر الحقيقة

ثم يعرج ثوكيديدس إلى الإشارة عن طريق تدوينه الوقائع الحربية فيقول « لا أذكر أنى دونت معلومات استقيتهـا مصادفة ، فإنى لم أذكر سوى ما رأيتـه بعينى رأسى أو قمت بتحقيقه شخصيا واتضح لى فى النهاية أنه وقع فعلا . ومع ذلك فقـد أخطأه التوفيق فى الحكم على بعض الحوادث ، فالبعض يرى أنه كان متحيزاً على الزعيم الديما جوجى « كليون »

فى الوقت الذى أغرق فيه فى مدح الزعيم «ركليس» ، لا بأس ! فأين هو المؤرخ الذى يسرد الحوادث التاريخية دون أن يتأثر بالعاطفة والتحيز ؟

وقصارى القول ، أن ثوكيديدس كان يفهم تماماً الطريقة الصحيحة لتدوين الحوادث ، وكانت لديه عدة ميزات تعينه على ذلك ! حقيقة كانت تنقصه العناصر المتوافرة لدى مؤرخى العصور الحديثة ، فهو لم يذهب إلى المدرسة أو الجامعة ولم يتعلم طرق البحث العلمى الصحيح ، إلا أنه تعلم طريقة الحياة وسط المفكرين الذين تبدو آراؤهم فى الانعكاسات السيكولوجية لأحاديثه ، فقد كان يقص الحوادث التى وقعت فى زمانه ويصور المواطف والأحاسيس التى أحس بها شخصيا واستطاع بذلك أن يمتاز بأن تصويره للحوادث جاء عن اتصالاته الشخصية بها لا عن طريق المستندات والمدونات . وهو لم يقض حياته متفرجاً بل اندمج بنفسه فى كثير من الحوادث وساهم فيها ، فكان سياسيا خدم فى الجيش وعمل فى الأسطول وتلقى جانباً من الثقافة من اتصالاته بالمفكرين والشعراء فى هذه الساعات التى كان يقضيها معهم فى محالهم حيث كانوا على اتصال دائم بالطبيعة الإنسانية التى اتخذوا منها مادة لكتاباتهم ونظمهم

وكان لاشتراك بلاده (أثينا) فى الحرب ميزة اهلها الفريدة من نوعها لتدوين حوادث هذه الحرب وخاصة بعد أن قضى شطراً من حياته فى صفوف العدو وهو يقول فى ذلك :-

« لقد كان من حسن حظى أن أمضى عشرين عاماً فى النفى فوجدت بذلك الفراغ الكافى لأن أرقب الحوادث عن كثب »

هذه العناصر ، عنصر المساهمة فى الحوادث والنظر إليها خلال منظار بلاده تارة ومن منظار أعدائه تارة أخرى كانت كافية لأن تجعل منه مؤرخاً منقطع النظير

وقد أطلق البعض عليه لقب (مؤرخ سياسي) وقد دفعهم إلى ذلك أنه عنى عناية فائقة بحياة الأمم والرجال فى الأمور السياسية ، وإن من يقرأ تاريخه عن الحرب البلوبونيزية يدخل فى روعه أنها حروب نشبت بين إمبراطوريات عظام ، وأوضح لنا المؤلف سبب قيام هذه الحرب ويستطيع القارئ الكريم أن يرجع إلى كتابه الذى نقله عن اليونانية أخيراً سير رتشرد لفنجستون حميد إحدى كليات أوكسفورد

وقد أشار هذا المؤرخ الكبير إلى حقيقتين عن الدمقراطية جديرتين بالتسجيل ، الأولى هى أن الدمقراطية الناجحة فى حاجة ماسة إلى زعماء مهرة بارعين إذ أن أثينا لم تحطمها وتودى بها سوى الزعامة الفاسدة . والحقيقة الثانية هى معنى الدمقراطية فهى — كما يرى — التى تترك لكل فرد الحرية فى أن يعنى بشؤون نفسه بطريقته الخاصة به وعلى الأفراد واجب احترام قوانين الولاية وأن يقدموا لها الخدمات بمطلق حريتهم

وكان الرجل واقعيا فى تفكيره لا يجرى وراء النظريات المثالية التى نادى بها مفكرو اليونان فى القرنين الخامس والرابع قبيل ميلاد المسيح ومنهم أفلاطون الذى قال (إن الدولة قامت لتنشر العدل) بل قال صاحبنا (إن الدولة هى القوة وأنه لا دخل للأمور الأخلاقية فى العلاقات السياسية بين الدول وأن على الضعيف دائماً أن يستسلم !) وليست هذه المبادئ صادرة عن ثوكيديدس نفسه بل هى صدرت عن الحقائق ، فإن أفلاطون رأى ما ينبغى أن تكون عليه الدولة فى حين صور لنا مؤرخنا حالة الدولة فى الواقع

وهكذا فإننا لا نرى إشارة إلى العدالة أو الرحمة فى تاريخه ، فقد عبر عن آراء الزعماء والقادة. وهذا صاحبه بركليس يقول (عليك أن تذكر أن عظمة بلادك ترجع إلى أنها كرست حياتها للحرب ، ولو سرت عليها سنة التطور وأخذت فى الانهيار فيكفى أنها حكمت أكبر عدد من الولايات لم تحكمه دولة أخرى)

* * *

وقد يبدو لنا تاريخ ثوكيديدس لأول وهلة سرداً للوقائع لمبور دراماتيكية مملة دون أن نشارك الفريقين المتحاربين عواطفه؛ بيد أن « فردبث » يقول : كما تبدو فكرة المواطن الصالح فى « كوميدات اريستوفان » تظهر الروح الوطنية فى تاريخ ثوكيديدس فهو لم يقرم بشىء قدر قيامه بأثينا » كان صاحبنا ينظر نظرة خاصة إلى الوطنية فلا يكتفى بأن يكرس الفرد جهوده لوطنه بل عليه أن يتعشقه عشقا !